الجمع بين العلو والمعية وأنه لا تنافي بينهما

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا؛ يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ. كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]).

(الشرح)

أراد المصنف –رحمه الله–بهذه القطعة، كشف شبهة، ورفع توهم يقع لبعض الناس، والتوفيق بين النصوص الدالة على علو الذات، والنصوص الدالة على المعية، وقد سبقت الإشارة لذلك، وهاهنا مزيد بيان، **وقد دلَّل على ذلك بأنواع الأدلة:**

أولًا: ناطق الكتاب: فقد جمع الله تعالى بين العلو والمعية في آية واحدة، فقال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد:٤]؛ فذكر الاستواء الدال على العلو، والمعية في سياق واحد.

ثانيًا: السنة المتواترة: فإن علو الله ومعيته قد تواترت بهما الأحاديث النبوية.

ثالثًا: إجماع سلف الأمة: وهو الإجماع المنضبط المعتبر؛ إذ بعده كثر الاختلاف، وانتشرت الأمة، كما سيبين آخر الكتاب. وقد حكى ذلك عنهم أبو عثمان الصابوني، رحمه الله، في "عقيدة السلف وأصحاب الحديث".

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: [وَهُوَ مَعَكُمْ] أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مِنْ أَصْغَرِ

مَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ، وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمْ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ).

(الشرح)

في هذه القطعة رد على من توهم أن المعية تقتضي الحُلول والاختلاط؛ من وجوه:

الوجه الأول: قوله: (فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ). ولم يقل: لا تدل عليه اللغة. وذلك أن إحدى دلالات المعية الحُلول والاختلاط، لكن اللغة لا تُعينه دون غيره وتنفي ما سواه، بل اللغة تفيد عدة معاني، يعين أحدها السياق.

فلفظ "المعية"، في أصل وضعه، لفظ يدل على مطلق المقارنة والمصاحبة، ويقيد هذا الإطلاق السياق والإضافات والقرائن:

- فتارة تكون دالّة على الحُلول والاختلاط، كقولك: جعلت الماء مع اللبن، وقولك: محمد مع أصحابه.

- وتارة تدل المعية على النصر والتأييد: كقول الرجل لأخيه: اذهب وأنا معك. أو قوله لمن رآه واقعًا في حُفرة: أنا معك. وإنما أراد: أُعينك وأنتشلك.

- وتارة تكون بمعنى التهديد والوعيد، كقول الشرطي للجاني: اذهب وأنا معك.

– وتارة تكون معية حُكمية، كقول الرجل زوجتي معي، وهو في المشرق وهي في المغرب، يعني في عصمتي.

فكونه سبحانه أثبت لنفسه المعية؛ لا يقتضي حملها على أحد هذه المعاني وهو الحُلول والاختلاط، وإنما يدل على معية العلم والإحاطة بسائر صفات الرُبوبية؛ من السمع والبصر والقُدرة، إلى غير ذلك. وهذا لا ينافي علوه واستواءه.

الوجه الثاني: قوله: (وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ)، فسلف الأُمة مجمعون على إثبات العلو، ونفي الحُلول. حتى إنهم فسروا آية المجادلة بمعية العلم؛ قال الإمام أحمد –رحمه الله–: ابتدأ الآية بالعلم وختمها بالعلم. كما تقدم. فقد انعقد إجماع السلف على نفي هذا الوهم.

الوجه الثالث: قوله: (وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ)، فجميع الخلق مفطورون على اعتقاد عُلو الله، وتأبى فطرهم أن يكون حالًا بينهم. وإنما يقول هذه المقالات الشُذاذ، أصحاب العقول الفاسدة، والنُفوس المريضة؛ كأصحاب وحدة الوجود والاتحادية.

الوجه الرابع: الدليل الحسي، في قوله: (بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ وهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ، وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ)، يقول المسافر: ما زلت أسير والقمر معي. والقمر في السماء، والمسافر في الأرض. فاجتمع في القمر علو ومعية، وهو مخلوق صغير من مخلوقات الله! فهذا نوع معية، لأن المعية تدل على مُطلق المقارنة والمصاحبة.

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمْ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ): الرقيب: الحفيظ الذي لا يعزب عن سمعه وبصره وعلمه شيء، ولا تخفى عليه خافية. قال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} [الأحزاب: ٥٢]. والمهيمن: القائم على عباده بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، المحيط بهم. فلا تنافي بين عُلوه ومعيته، فهو قريب في عُلوه، عليٌّ في دنوه.

تنزيه الله تعالى عن الظنون الكاذبة في باب العلو والمعية

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ؛ مِنْ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا؛ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ}. أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ).

(الشرح)

نبّه المؤلف على أمر مهم، وهو: أن كل ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه فهو حق على حقيقته، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢]، وقال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧] أي: لا أحد. فليس لأحد كائنًا من كان أن يستدرك، أو يؤول كلام الله، ويصرفه عن حقيقته، فهو غني عن هذه التدخلات التي يُمارسها بعض المتكلمين، بقولهم: ليس مُراده كذا وإنما مُراده كذا وكذا!

قوله: (وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ): فقد يخطر بالبال، أو يدور في الخيال وهم باطل، يظن صاحبه أنه مقتضى النصوص، والنص بريء من وهمه، مثل أن يظن أن ظاهر قوله: [فِي السَّمَاءِ] يقتضي أن السماء تحويه؛ تُظله أو تُقله! **فبين بطلانه من وجهين:**

الوجه الأول: قوله: (وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ)؛ فلا يلتفت للظانين بالله ظن السوء، الحاملين كلامه على المحامل الباطلة.

الوجه الثاني: الأدلة الشرعية القطعية: كقوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥]، والكرسي موضع القدمين، كما تقدم عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فاطر: ٤١]، وقوله تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥]، فلا قيام للسماوات والأرضين إلا به، وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥]. فهذه النصوص تدل دلالة قطعية على أن السماوات والأرض خلق من خلق الله، مفتقر إلى الله، لا قيام لهما إلا بالله، وأنهما ذرة ضئيلة في ملكوت الله، وأن السماوات لا يُمكن أن تحويه، أو تُقله، أو تُظله. فكيف يتوهم مُتوهم هذا المعنى الفاسد؟! وقد تقدم توجيه المُراد بقوله: (فِي السَّمَاءِ).

إثبات قربه سبحانه من خلقه وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيّته

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ]. وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ، لَا يُنَافِي مَا نَذْكُرُ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ).

(الشرح)

قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ): المشار إليه ما تقدم من قوله: **(وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ)**، وأراد بذلك إثبات صفة القُرب له سبحانه وتعالى، كما دلّ عليها قوله تعالى: **(فَإِنِّي قَرِيبٌ)**، وقول نبيه صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو مُوسَى الأَشْعَرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ، هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ! فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ)[1]، وقد تقدم. وسألوه مرة فقالوا: يا رسول الله: (أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ)[2]؛ فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام: (ولا يقال في هذا: قريب بعلمه وقدرته؛ فإنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، وهم لم يشكوا في ذلك، ولم يسألوا عنه، وإنما سألوا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه؛ ولهذا قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} فأخبر أنه قريب مجيب.

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب، في الآية والحديث، بالعلم؛ لكونه هو المقصود؛ فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول: إنه قريب من كل شيء، بمعنى العلم والقدرة؛ فإن هذا قد قاله بعض السلف، كما تقدم عن مقاتل بن حيان وكثير من

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٢٩٩٢)، ومسلم: رقم (٢٧٠٤).

[2] أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره: (٣/ ٢٢٢)، وابن أبي حاتم: (١/ ٣١٤)، عند قول الله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ).

الخلف، لكن لم يقل أحد منهم: إن نفس ذاته قريبة من كل شيء. وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين؛ من يقول: إنه فوق العرش، ومن يقول: إنه ليس فوق العرش.

وقد ذكر ابن أبي حاتم، بإسناده، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشُون قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] يعلم وهو كذلك ما توسوس به أنفسنا منا، وهو بذلك أقرب إلينا من حبل الوريد، وكيف لا يكون كذلك وهو أعلم بما توسوس به أنفسنا منا، فكيف بحبل الوريد؟!

وكذلك قال أبو عمرو الطلمنكي، قال: ومن سأل عن قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦] فاعلم أن ذلك كله على معنى العلم به والقدرة عليه. والدليل من ذلك صدر الآية، فقال الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} لأن الله لما كان عالما بوسوسته، كان أقرب إليه من حبل الوريد. وحبل الوريد لا يعلم ما توسوس به النفس ...

قال: وقد أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله على عرشه، بائن من جميع خلقه، وتعالى الله عن قول أهل الزيغ، وعما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قال: وكذلك الجواب في قوله فيمن يحضره الموت {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٥] أي بالعلم به والقدرة عليه، إذ لا يقدرون له على حيلة ولا يدفعون عنه الموت، وقد قال تعالى: {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [السجدة: ١١].

قلت: وهكذا ذكر غير واحد من المفسرين، مثل الثعلبي وأبي الفرج ابن الجوزي وغيرهما في قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، وأما في قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ} فذكر أبو الفرج القولين: أنهم الملائكة، وذكره عن أبي صالح عن ابن عباس، وأنه القرب بالعلم.

وهؤلاء كلهم مقصودهم: أنه ليس المراد أن ذات الباري، جل وعلا، قريبة من وريد العبد ومن الميت، ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون قرب الملائكة فسروا ذلك بالعلم والقدرة كما في لفظ المعية، ولا حاجة إلى هذا؛ فإن المراد بقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ}؛ أي بملائكتنا في الآيتين، وهذا بخلاف لفظ المعية، فإنه لم يقل: ونحن معه، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذي خلق السموات والأرض، وهو نفسه الذي استوى على العرش، فلا يجعل لفظ مثل لفظ، مع تفريق القرآن بينهما)[1].

---

[1] شرح حديث النزول: (ص: ١٣٠-١٣١)، وانظر أيضًا: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (٦/ ٢٥-٤٠).

فشيخ الإسلام لا يرى انقسام "القرب" إلى عام وخاص؛ كما "المعيّة"، بل القرب خاص بالمؤمنين، يقتضي الإجابة والإثابة، وهذا لا يتصور في حق الكافرين والفاجرين، وحمل ما ورد من النصوص العامة على قرب الملائكة. والله أعلم.